



على مدار خمس سنوات مضت، انتقلت سورية في إدراك إدارة الرئيس الأميركي، باراك أوباما، من موقع إلى آخر، مرّة جرى وضعها في قلب العالم، وصارت البؤرة التي تحدّد سلامه واستقراره، ومرة صارت على هامش العالم، وحينذاك لم يكن ثمة داع سياسي وأخلاقي للتمييز بينها وبين الكونغو. وأخيراً، تاهت، ولم يعد يعرف أوباما نفسه أين صارت.

ربما تحتاج إدارته هذه الديناميكية الإدراكية المتطرفة دائماً، لتمكن من ترتيب سياساتها وقراراتها، سورية عائمة في فضاء غير محدّد أفضل من سورية محدّدة المعالم يمكن بسهولة قراءة أبعاد كارثتها، وتظهير الالتزامات الواجبة تجاهها، لكن سورية، وفق هذه الشاكلة، تصبح قضية كلاسيكية "ثورة حرّة" من تلك القضايا التي عايتها الإدارات الأميركيّة المتعاقبة، ولم تتنطّو على فرص استراتيجية خلّاقة، تساعد واشنطن، في نقلتها إلى زمن مختلفٍ، في عالم العلاقات الدوليّة.

ثمة من تسريع، وأطلق على هذا النمط من خليط السياسات "غياب الرؤية الإستراتيجية"، بحيث تنقزم الإستراتيجية إلى جملة سياساتٍ غير متراقبة، وغير هادفة، في الوقت نفسه. ويُلطف بعضهم هذا التوصيف بالقول بـ"ضبابية الرؤية الإستراتيجية"، وهي حالة صانع القرار المرتّب تجاه قضيّة، وعدم قدرته على تحديد الخيار المناسب للتعاطي معها. وفي الواقع، يستحيل وضع إستراتيجية واضحة مع غياب وجود حالة ثبات يمكن الانطلاق منها، بحيث يمكن وضع ركائز إستراتيجية تلك، وإمكانية تطويرها وفق مقتضيات تطوّر الحالة نفسها.

ليست سورية في منظور إدارة أوباما جغرافيا ولا ديمغرافيا، هي قطع من أزمات عديدة، يجري التعامل مع كل واحدة بشكل منفصل. مرّة تكون على شكل أزمة سلاح كيماوي يهدّد أمن إسرائيل، ومرة أخرى على شكل أزمة لاجئين، تهدّد بتفكيك الاتحاد الأوروبي. وفي كل الحالات، رفض الإدراك الأميركي توصيف الحالة السورية على أنها قضية أمن قومي، بقدر ما هي التزام تجاه شركاء خارجيين، يمكن لإجراءات بسيطة ومحبّدة أن تعدل من آثار التداعيات التي تنتجهما. وحتى تلك الإجراءات

تشمل مروحة واسعة من التصرفات التي لا تستدعي تدخلاً أميركياً مباشراً، مثل تكيف أوروبا مع أزمة اللاجئين، وإيجاد الحلول المناسبة ذاتياً، أو لأن تننسق إسرائيل عسكرياً مع روسيا.

هذا الشعور بعدم الإلجاجية هو ما يظهر السياسة الأميركية بمظهر القادر على إدارة الأزمة بدم بارد، يصل إلى حد التجريب والتدريب السياسي والمساومة البعيدة الأمد، بل تحول سوريا إلى مختبر لفحص توجهات العالم في المرحلة المقبلة، ومعرفة أنماط القوة، وطبيعة الإستراتيجيات التي يفكر بها الخصوم. على ذلك، بقدر ما تصبح سوريا بالنسبة لروسيا مختبراً لمناذج الأسلحة الحديثة لديها، تعتبر واشنطن سوريا أيضاً مختبراً لمعرفة فعالية السلاح الروسي في أي حرب قادمة، واكتشاف ما تخفيه من أسرار عسكرية، إن على مستوى تقنيات الأسلحة، أو على مستوى الخطط والإستراتيجيات.

وفق ذلك، تبدو سوريا في مدرك إدارة أوباما جغرافياً محمولة على سفينة أو طائرة. وفي الحالتين، هي ذات طبيعة متحركة ومتقلقة، مرّة تصبح على تماس التخوم الأوروبية، عندما تشتكى أوروبا من أزمة المهاجرين. حينها تضع تلك الجغرافيا رحابها بالقرب من أوروبا، مرّة تصبح على الحدود الروسية، وعلى مشارف موسكو، عندما يتم تفهم السلوك الروسي إزاءها. وحياتها، تغدو سوريا واحدةً من دول آسيا الوسطى التي تقع في الحرم الروسي، مرّة تحط على حدود الكونغو وتتألفق أزمتها، فيطلب أوباما من الذين ينتقدون تراخيه عن التدخل التفریق بين أزمة الإنسان في الكونغو وأزمة نظيره السوري، وبالتالي، عدم إمكانية تفضيل أحد عن الآخر، والتدخل لصالح هذا وعدم التدخل لصالح ذلك.

ولعل ما يسلط الضوء على حقيقة أن سوريا هي جغرافياً متحركة، تغيّب، أحياناً، عن مراصد إدارة أوباما، اكتشاف الرئيس أوباما نفسه، أخيراً، أن التدخل الروسي علامة على ضعف الأسد! أو كأنه ليس من البديهي أن يتم هذا التدخل نتيجة ضعف الأسد. وليس رفاهية تمارسها روسيا، على الرغم من أن سكان جبال الإيكواور وصل إليهم، منذ فترة بعيدة، أن نظام الأسد متهالك، ويستعين حتى بأفراد يتم جمعهم من مخيمات الأفغان في إيران، ومن جبال باكستان، والمعارضين العراقيين الباحثين عن ساحات لتنفيذ احتفالاتهم، وهذا يثبت أن أوباما غائب عن تفاعلات الميدان السوري، ومنذ عشية الليلة التي أنجز فيها الاتفاق مع بوتين، لتسلیم الأسد سلاحه الكيماوي.

وأيضاً، ما يؤكد هذه الحقيقة دراسة نشرها مركز أبحاث بروكنجز تكشف أن أوباما يضم آذانه عن كل ما يخص سوريا، ولا يعطي فرصة لمستشاريه، لتبنيه بالمتغيرات الخطيرة التي تحصل في ذلك البلد، وإنه ينطلق من افتراضات أولية وتبسيطية للأزمة، ويرفض بشكل مطلق مغادرتها، أو بناء بدائل منطقية لها.

ومن الواضح أن سوريا ستبقى دائمة التنقل، ولن تحظى بأي شكل من أشكال الإقامة، ما دامت إدارة أوباما باقية، بل إنه سيفرض على أي إدارة قادمة التعاطي معها بهذا الخليط نفسه من الإجراءات والسياسات، وربما شكّل هذا الأمر أحد المحركات التي تنطلق منها الحملة الروسية الإيرانية الأخيرة على سوريا، حيث تتسارع الخطى، لجعلها حقيقة خارج إمكانية القدرة على التعاطي، بعد أن يتم تشكيلها بمقاسات وتصاميم خاصة.